

التعدد الصوتي من خلال السخرية في المنظور التداولي

د. حمو الحاج ذهبية

جامعة تيزي وزو

إنَّ علاقة الإنسان باللغة وثيقة إلى حد كبير جعلته لا يستغني عنها منذ ميلاده، فقد اعتاد عليها مثلها اعتاد مشاهدة الشمس والنجوم. ولأنَّ نظر الإنسان إلى اللغة من حيث هي وسيلة، فهو غير مخطئ في ذلك، إلا أنَّها تتجاوز هذا الغرض بكثير، فعن طريقها يمكن التعبير عن مكنونات النفس، وعن فرحها وضيقها، وعن طريقها يمكن الوصول إلى درجات عليا من العلم والمعرفة، ومن ثمة فعدم الاستغناء عن اللغة أمر مبرر، وفي الآن ذاته يحمل الإنسان إلى الكشف عن كينونتها، وماهيتها وآليتها.

إنَّ البحث في اللغة قديم قدم وجود الإنسان، فقد وجدناه يربطها بالطبيعة وبمواضعة الأشخاص تارة، ويربطها بالفلسفة والدين تارة أخرى، وعلى مَرَّ العصور والأزمنة اكتسبت اللغة مفاهيم متعددة إلى أن استغلها الدرس اللغوي الحديث من حيث هي وسيلة للتواصل ووسيلة للتأثير والتأثر والإقناع، وبهذا المنظور يمكن الإحالة إلى القصد من وراء استعمال اللغة، الاستعمال الذي يتطلب اكتمال كل عناصر العملية التخاطبية.

والسخرية ضمن الاستعمال اللغوي تنطلق من قصدية توظيف أكثر من صوت قصد توصيل الرسالة/ الخطاب، والاحتماء بصوت كلما تطلب الأمر ذلك، فهي على شكل لعبة مزدوجة، الغاية منها الوصول إلى الهدف المنشود والمتمثل في الإساءة غالبا، إلا أنَّ وجود الازدواجية تلك تسمح للمتكلم بعدم تحمل المسؤولية

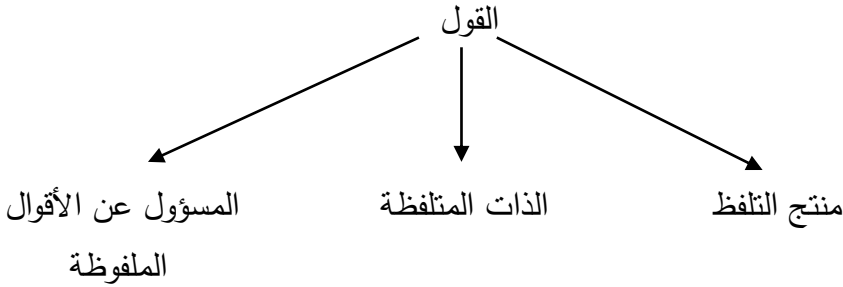
فيما يقول، فيمكن الحديث عن الإستراتيجية التواصلية التي تحتكم إلى آليات الظاهر والخفي من القول، وإلى التعدّد الصوتي.

تمسّ إشكالية التعدّد الصوتي هوية الذات المتحدثّة، والمتكلم، والمتلفظ، وهي أطراف تتحدد في:

1. المنتج الطبيعي أو الحقيقي للملفوظ (الشخص المتحدث أو الكاتب).

2. الأنا (الذات المتحدثّة) التي تأخذ موقع المتلفظ.

3. المسؤول عن الألفاظ الكلامية، إذ كلّ تلفظ يحقق فعلا كلاميا مميزا وإذا أخذت هذه الأطراف على أنها أوضاع، فإن هذه الأخيرة تتحقق في التواصل الكلامي غالبا، فإذا قلت لأحد: "إني راحل إلى بلاد غريبة" فإني وفي الوقت نفسه أكون: منتج التلفظ، وأكون الشخص الذي يتصادف مع الذات المتحدثّة، والمسؤول عن إثبات القول.



إلا أنه في بعض الأحيان يجب التفرقة بين هذه الأدوار حتى تتضح الظواهر اللسانية، فما هو استعمال تداولي للغة هو أيضا كذلك بالنسبة للخطاب الأدبي الذي يفترض نوعا من التواصل الذي يتجاوز التبادلات اللسانية العادية، ففي أغلب الأحيان يقتفي المؤلف طرقا تؤدي به إلى التعبير عما يريد دون تحمل مسؤولية أقواله، فهو يوكل تلك المهمة لأشخاص آخرين يضعهم في الواجهة، وبالتالي يمكن الرجوع عن الجانب الظاهري والخفي في العملية التخاطبية فيما يتعلق بالشخصيات خاصّة.

إنّ أول من تحدث عن تعدّد الأصوات Polyphonie هو باختين BAKHTINE⁽¹⁾، وهو المفهوم الذي طوّره أوسوالد ديكرو Ducrot للحديث عن التعددية الصوتية، بمعنى تعدّد الأشخاص في العملية التخاطبية. فقد ميّز ديكرو في هذا المقام بين الذات المتحدثة والمتكلم. تلعب الذات المتحدثة دور المنتج للتلفظ، أو هي ذلك الشخص الذي يسمح له بإنتاج الملفوظ، وذلك في ظروف فيزيائية وعقلية محدّدة، بينما يلعب المتكلم دور المسؤول عن فعل الكلام. إنّ مفهوم المؤلف في العمل الأدبي يأخذ معلم الشخص الذي كتب أعماله بقلمه، ولكنه يأخذ أحيانا دور الشخصية ضمن ذلك العمل سواء كانت الشخصية ظاهرة أو خفية، فالمؤلف هو الأنا الثانية للكاتب، ولهذه الأنا وظيفة حتمية، يقول رولان بارت: "إنّه في الوقت نفسه الذي ينتج المؤلف الواقعي عمله الأدبي، ينتج أيضا صورة أدبية مسقطة عن ذاته، أي أناه الثانية أو الأنا الروائية الثانية أو مؤلفا ضمنيا، أو مؤلفا مجردا..."⁽²⁾ وإنّ كان العمل يختلف نوعا ما في السخرية، إلّا أنّ بينهما نقاطا مشتركة حيث نجد مؤلف القول الساخر يقدم أنا أخرى دعيت في المنحى التداولي الحديث بالمتلفظ Enonciateur.

ليس المؤلف هو الشخص الوحيد الذي بإمكانه قول (أنا) في النص، وإنّما نجد سرودا Narrations تقدم أشخاصا وهم يتلفظون في حال الخطاب المباشر ويتحملون مسؤولية تلفظاتهم في حال دورهم كمتكلمين.

إنّ الشخص كصوت ينتقل في أثناء العمل الساخر من وضعية اللا-شخص*⁽³⁾ non personne إلى وضعية المتكلم، وهي ميزة الخطاب المباشر الذي نجد فيه إمكانية إقحام تلفظات ذوات أخرى في تلفظ المؤلف الحقيقي، ويتم ذلك كله في كنف مسؤولية المؤلف إلى جانب عوامل أخرى من عمله الأدبي.

إنّ الحديث عن الصوت يؤدي إلى الحديث عن الصورة أو Echos التي جاءت كمفهوم من البلاغة القديمة، فصورة أيّ شخص تظهر من خلال أقواله،

هذا في العموم، أما عند أرسطو في خطابه فإنها تمثل الصورة التي يقدمها المخاطب (الخطيب) بصفة ضمنية عن نفسه من خلال طريقة كلامه، أما حديثاً، نجد ديكرود⁽⁴⁾ Ducrot يحدّد الصورة بالشخص ذاته أي ما يمثله حقيقة من حيث كونه فرداً ومتلفظاً في الآن ذاته.

وظف تحليل الخطاب مفهوم الصورة Ethos حديثاً، فأصبحت شاملة في الخطاب المكتوب والخطاب المنطوق، والصورة تستلزم تحديد الشخص كمتكلم والشخص المتلفظ الذي يتحمل المسؤولية، وفي هذا يجب أن نولي الاهتمام للحركات وطريقة اللباس وعلاقة المخاطب بغيره... وبذلك فهو يتحمل مجموعة من الصفات النفسية والجسمية. وفي حقيقة الأمر، تلعب الصورة دوراً هاماً في التخابط الاجتماعي، فهي التي تمنح الشرعية للمعايير الأخرى التي تتدخل في انسجام الخطاب.

إنّ المتكلم يتخذ في نص واحد عدّة صور، والنصوص على اختلافها ليست معزولة عن "صوت" وعن "نبذة" خاصة، وقد نكون على خطأ مثلما كانت البلاغة القديمة* - إذا خصصنا الصورة للذات المتحدثة فقط، لأنّه انطلاقاً من خاصة الثنائية التخابطية، يجب أن نجعل للمتلقّي صورة. إنّ النصّ يكون نوعاً من الصورة لهذا المتلقّي ويحمّله ملامح مختلفة، فمكانته إذن ليست دون أيّة خصوصية.

يحتمل التلفظ وبطرق مختلفة حضور المخاطب بشكل ضمني أو ظاهري في الملفوظ، ونظراً للدور الذي أسند لهذا الطرف في العملية التخابطية فضّل الكثير من اللسانيين ومن بينهم كليولي Culioli تسميته بالمتلفظ المصاحب Co-énonciateur بدل المخاطب أو المرسل إليه⁽⁵⁾ ومن الملاحظ أنّ المؤلف هو الذي ينتج نصّه، ويفترض متلقاً معيّناً، أو يمكن القول أنّ المتلفظ يقتفي إستراتيجية محدّدة تتوقع طرفاً آخر يتقبل القول الساخر ويفهمه إلى حدّ ما،

يقول إمبراطور إيكو في هذا الصدد: "لكي ينظم المؤلف إستراتيجيته النصية عليه أن يرجع إلى سلسلة من القدرات التي تعطي المضمون للعبارات التي استعملها، وعليه أن يتحمل أن مجموع القدرات التي يرجع إليها هي نفسها التي يرجع إليها قارئه..." (6)

تعدّ السخرية ضمن المجازات البلاغية، وذلك إلى جانب الاستعارة، ومجاز الإيجاز، والمبالغة l'hyperbole. إنّ المجاز - كما هو معروف - يعني أن يحمل الملفوظ معنى آخر إضافة إلى معناه الجانبي، والسخرية باعتبارها كذلك تتحدد بأن يقول المتكلم سواء عن استهزاء أو تهكم عكس ما يعتقد فيه⁽⁷⁾، فيمكن الحديث هنا عن الجمل المتعاكسة أو المتضادة.

إنّ السخرية باعتبارها نوعا من العمل التواصلية ليست بحدیثة العهد، فالتراث اللغوي العربي يزخر بمظاهر السخرية أو التهكم، فقد ألقت كتب في غاية الروعة والجمال، تحتكم إلى تقنيات منظمة، وآليات محكمة نادرا ما نجد لها مثيل، وكانت مفخرة العرب في ذلك الزمان، إذ عبرت عن حبّهم وكرهيتهم وهجائهم ومدحهم ما جعل العرب يتسابقون إلى الإتيان بالأمثل والأعقد والأجود. أمّا في الفكر المعاصر فإننا نجد بعض الباحثين من اقترحوا العودة إلى ظاهرة التتويه أو الذكر La mention تبنيًا لمفهوم مانقونو Mainguenuau وهم يحيلون في هذا إلى التفرقة الكلاسيكية بين ذكر الكلمة من جهة واستعمالها من جهة أخرى.

تحمل الكلمة معنى أثناء الذكر، بينما في أثناء الاستعمال فهي تحيل إلى مرجع آخر، فلو أخذنا السخرية بمفهوم الذكر أو التتويه فذلك يعني اعتبارها نوعا من الاستشهاد أي ذكر قول متكلم يقول شيئا في غير محلّه، ومن جهة أخرى عدم اعتبارها صورة Ethos أو جملة ضدية مثلما نجد ذلك في البلاغة القديمة حيث نقول عكس المعنى الجانبي.

لقد أسست البلاغة مفهوم السخرية على وجود تناقض منطقي في الدلالة العامة للملفوظ مما يفسر التعريف الشهير: "السخرية صورة نمر من خلالها عكس ما نقول". وإذا أردنا ربط السخرية بالتعدد الصوتي، فذلك يحيلنا إلى البحث عن المتكلم الحقيقي والمسؤول عن الكلام أو الأقوال.

يحتمل في السخرية وجود صوت مختلف عن صوت المتكلم ذاته، فيمكن الحديث هنا عن الشخصية مثلما نجدها في المسرح، إذا تقدّم لها دورا ونجعلها أمام ذات ووراء شخصية معينة، فهذه الشخصية في حال السخرية تقول شيئا في غير محله، وبذلك يبتعد المتكلم عن طريق النبرات والإيماءات، وكأنه يحدث فاصلا بين شخصيتين ويحاول إبراز ذلك، فهو في حالة تقليد للشخصية التي تتحدث بطريقة غير لائقة.

ينظر ديكرود⁽⁸⁾ Ducrot إلى الحديث بطريقة ساخرة من حيث توزيع الأدوار على المتكلم والذات المتحدثّة، فعلى المتكلم (س) أن يأخذ وضع المتلفظ (ع)، وبالتالي فهو أي المتكلم (س) لا يتحمل مسؤولية هذا الوضع، وباعتباره المسؤول عن التلفظ، فإن (س) باعتباره متكلمًا غير ممثّل في (ع).

إنّ هذه "الوضعية السخيفة"⁽⁹⁾ مثلما يدعوها ديكرود حاضرة في التلفظ الساخر، ولا يتحملها المتكلم (س) في الآن ذاته - مادام هذا الأخير مسؤولاً عن الكلمات أو العبارات فقط، بينما الآراء فهي مرتبطة بالشخص (ع) - فهو يحاول أن يبين ابتعاده إزاء الرأي السخيف، وكأنه يريد الانفصال بشخصه عن الشخص الذي تقمص دوره.

يبدو أنّ السخرية مثل أيّة ظاهرة لغوية قابلة للتصنيف والتحليل، فإذا بدأنا بالتصنيف فإننا سنحيل إلى برونودنر⁽¹⁰⁾ A. Berrendonner الذي ينطلق من المبدأ الدلالي ليميّز بين الجمل المتضادة (س و ع)، فنجد عنده:

1- التضاد الصريح:

إنّ س وع جمل موسومة بشكل صريح في المحتوى الجانبي للملفوظ، فالأمر يتعلق في أغلب الأحيان بما يدعى في المنظور التداولي بالمثبت والمفترض Posé et présumé حيث أن التقاءهما الضدي ينتج أثراً قليل الاختلاف.

2- الحقيقة الضدية:

يمكن الحديث هنا عن الحقيقة الضدية عندما يمكن تكذيب الجملة (س) الموسومة صراحة في الملفوظ عن طريق معلومة مقامية أو سياقية ضمنية، إلا أنّ المتخاطبين بإمكانهم الكشف عنها، ويمكن القول أنّها واضحة، وهذا من قبيل "ما هذه الشمس المحرقة" في حين أنّ "الأمطار تهطل بغزارة".

3- التضاد الضمني :

ينتج التضاد الضمني عندما يسمح الملفوظ باستنتاج تضادين ضمنيين، وذلك عن طريق عمليتين إنتاجيتين مختلفتين، وبالتالي تكون كل من الجملة (س) والجملة (ع) مستنتجة وحسب برونونر Berrendonner يمكن تفعيل مثل هذا النوع من السخرية فيما يدعى "بالسذاجات الحجاجية الخاطئة".*

إنّ تواجد السخرية في القول يوجهها نحو الحذر، إذ علينا الوصول إلى المعنى المقصود مهما اختلفت الأقوال ومهما تكن بنيتها السطحية، وهذا ما يبين الغياب الكلي للتجانس في المظاهر المكونة للسخرية في حال اجتماعها.

ومثل هذا التعقيد يفرض على المتلقي أو المحلل العودة إلى بعض الآليات التداولية، ثمّ أنّ نعرّف السخرية على أنّها تضاد أو تعاكس يعني الاحتكام إلى مستويات تحليلية مختلفة من "لغوية، وسياقية، وتصريح وتضمنين، إلاّ إن طريقة تفكيك السخرية والوصول إلى الحقائق المقصودة ليست بالعمليات السهلة، ويمكن أن توجهنا إلى تفرعات مختلفة، فأحيانا نجد في الملفوظ ما يدعى بالخطاب المنقول⁽¹¹⁾ le discours rapporté، الذي كان يعبر عنه بالخطاب غير المباشر،

وأحيانا أخرى يجب البحث في معارف المتكلم حول الحقيقة المرجعية، بمعنى البحث في كيفية ترتيب الأوضاع (الأوضاع اللغوية التي تحدثنا عنها سابقا والمرتبطة بالذات المتحدثة والمتكلم)، ثم في بعض الأحيان يجب مقارنة مقصدين حاجيين مختلفين (متناقضين).

ومن الملاحظ أن مفهوم "التضاد" لا يكفي لتوحيد كل الظواهر، ثم أن نجعل من السخرية مجرد "تضاد" بحاجة إلى عناصر أخرى، لأنه لا تبرز خصائص السخرية من حيث اختلافها عن أشكال التضاد الأخرى التي ليست بسخرية أساسا مثل الكناية أو الاستعارة أو التورية... إذ أن كل صورة مجازية تركز على تحديد التضاد الداخلي للمفوض.

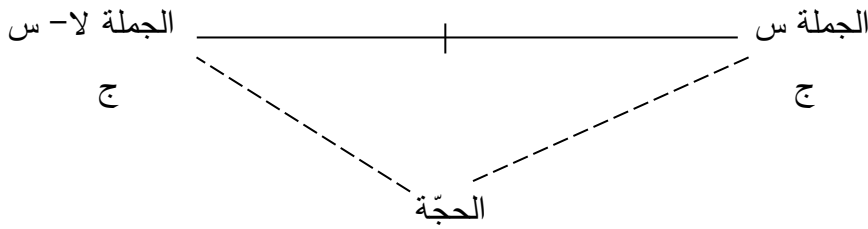
تتأسس مختلف الأوجه البلاغية من استعارة وأفعال انجازية ♦ على مبدأ "التضاد" إلا أنها تختلف عن السخرية التي تحتل أول خاصية وهي أنها تنتج في حضور ظروف محدّدة، فقد لوحظ أن بعض الجمل الساخرة قابلة للتأويل التضادي وأخرى غير قابلة لذلك.

فلو أخذنا الجملة التالية: "سوف أدخل إلى البيت الآن"، فإنها لأول وهلة تبدو صعبة التأويل من حيث أنها جملة ساخرة لأن كل العناصر التي تتضمنها لا توحى إلى ذلك، بينما نلاحظ العكس تماما في جملة قيمية في أثناء قول: "إنه ذكي" أو ("يا للذكاء!" c'est malin) التي تحتل تأويلا تضاديا، وفي كلتا الحالتين لابد من الاستناد إلى بعض الظروف المقامية السياقية وبعض الخلفيات التي توجه الحكم توجّها معينا.

إنّ ما يجعل الجملة تضادية أو ساخرة بالنسبة لبروندونر هو امتلاكها لقيمة حاجية (يقصد من القيمة الحاجية كل ثنائية جمالية (س ولا- س) تسمح بتحديد نوعين من الملفوظات، فنجد النوع (ج) الذي يمثل كلّ الحجج المستعملة لصالح (س)، والنوع (ج) الذي يمثل كلّ الحجج المستعملة لصالح (لا-س)،

وبتعبير آخر هناك إمكانية للتضاد حول (ع) إذا كانت (س) في زمن معين من الخطاب معترف به كحجة مفيدة في اتجاه نتيجة تعاقبية. والوصول إلى القيمة الحجاجية رهين العناصر التي تتدخل في التضاد، فهذه العناصر - التي تتوقف وظيفتها الدلالية عند إعلان الحكم القيمي الذي يحمله المتكلم - هي وسائل لسانية أساسية للحجاج، وتستعمل دائماً في عملية تحديد الموقف الحجاجي.

وفي هذا الإطار الذي يحتكم فيه إلى الوسائل اللسانية، يمكن وضع خصوصية للتضادات الساخرة في نطاق فائدتها الحجاجية، إذن السخرية كصورة تتميز مقارنة بالأشكال الأخرى - كونها تضاد حامل لقيمة حجاجية. والقيمة الحجاجية لجملة ما هي انتماؤها إلى ج أو جَ، وكلا النوعين يعملان في اتجاهين مختلفين، إذ لا يمكن أن نجد جملة خادمة للحجاج في اتجاهين متعاكسين (أي أنها حجة تتجه سواء إلى الجملة (س)، أو نحو الجملة (لا-س)).



يبدو أنّ هناك قانوناً أساساً للانسجام، أو مسلمة خاصة بالمنطق الطبيعي أو التضاد العقلي حيث يمكننا التراجع في أية مناسبة، وبالتالي تخضع السخرية لهذا القانون، فالفعل الساخر ينتج عندما يدخل الملفوظ في توجيهين متضادين، ومن ثمة إدراك التضاد.

لا تكمن السخرية في إثبات حالة الأشياء وضدّها فقط، ولكن تكمن في تقديم الحجّة المضادة إلى جانب الحجّة الرئيسية، وبالتالي قولنا: "عمر شخص ذكي جداً"، وبنبرة مميّزة يجعلنا نوّول من الوجهة الجانبية أنّ: "عمر من الأشخاص الأذكىاء الذين يمكن الاستماع إليهم"، ومن الوجهة الضدية أن نوّول الجملة من

حيث أنّ "عمر من الأشخاص الذين يجب أن نحذر منهم"، وبذلك عن طريق ملفوظ واحد يمكن أنّ تسمح بفهم عكس ما نقول، ويمكن القول أنّ السخرية ما هي إلاّ تضاد حجاجي يجعلنا نختفي وراء صوت آخر ممّا يفضي إلى عدم تحمل مسؤولية أقوالنا، وهو ما يحيل في المنهج التداولي الحديث إلى القول المضمر^{١٠}.

إنّ القيمة الحجاجية للملفوظ يمكن أن تكون تارة خاصية تميز المدلول الأولي، وتارة أخرى يمكن أن تكون خاصة متفرّعة قابلة للإحصاء مثل القول المضمر، ويتعبّر آخر فإن الحاجة L'argumentativité خاصية تميّز التلفظ، لا يقوم الملفوظ بوجود هذه العلامات الحجاجية إلاّ بتقديم المعلومات المتعلقة بالقيمة الحجاجية التي ينبغي إعطاؤها للتلفظ.

إنّ السخرية باعتبارها صورة يمكن أنّ تحلّل بمصطلحات التعدّد الصوتي⁽¹²⁾ polyphonie لأنّها تقوم بإيجاد هئتين تلفظيتين، إذ يقوم المتكلم بتمرير ومن خلال قوله مصدرا تلفظيا آخر يبرزه بوضوح كقول ساخر مبيننا انطلاقا من هذا الموقف تفوقه. يرافق التلفظ بالضرورة علامات تبين المسافة وتسمح للمتلقّي ملاحظة التباعد الكلامي.

وإذا اعتبرنا السخرية كفعل للتواصل، فإنّ التساؤل المطروح سوف يركّز على كيفية انجاز السخرية" أو "كيف تتم السخرية؟"، وهو ما يحيل الباحث مباشرة إلى سبرير رولسن⁽¹³⁾ Superber et Wilson الذين يصفان السخرية كفعل للتتويه. إنّ العمل الساخر بالنسبة لسبرير وولسن هو أن ننتج ملفوظا بتوظيفه ليس كاستعمال فقط، ولكن كتتويه لشيء وللحديث عنه وإبراز المسافة التي نتخذها إزاءه وبالتالي تقترب السخرية من الخطاب المنقول، ذلك أنّه يمكن تأويل كلّ الأقوال الساخرة كتتويهاات حاملة لخاصية الصدى، الصدى القريب أو البعيد، الصدى المرتبط بالأفكار أو بالجمل، الصدى الحقيقي أو الخيالي.

يمكن اعتبار السخرية مهما كان نوعها تنويهاً لجمل، تؤوّل هذه التنويهاً على أنها صدى لملفوظ أو لفكرة حيث يشير المتكلم إلى نقص في الدقة والإفادة. يبدو هذا المفهوم المقدم للسخرية صحيحاً في الأساس، فهي تفسّر الازدواجية التلفظية التي أثارته بلاغة الصورة مرات متعددة. إنّ الحديث عن ازدواجية التلفظ يعني الحديث عن مستويين للتلفظ، فعندما نمارس الفعل الساخر، فإننا نمارس تلفظات 1 متعلقاً بتلفظ سابق أو ضمني يدعى بـ 0 نرفض تقبله، فنجد مثلاً في البيان والتبيين للجاحظ⁽¹⁴⁾: "وأتى أزهري بن عبد الحارث رجل من بني يربوع فقال: "ألا أدخل؟" قال: "وراءك أوسع لك"، نلاحظ أن المخاطب مارس تلفظاً 1 وهو تلفظ ساخر، وهذا في مقابل التلفظ السابق 0 والضماني الذي يحتمل مفهوم عدم الدخول. ونجد الأمر نفسه في أقوال أخرى أدرجها الجاحظ في باب "اللغز في الإجابة" ومنها: "...قال: "إن الشمس أحرقت رجلي"، قال: "بل عليها يبردا". قال الحجاج لرجل من الخوارج: "أجمعت القرآن؟"، قال: "أمتفرقا كان فأجمعه"، قال: "أقرأ ظاهراً؟"، قال: "أقرأه وأنا أنظر إليه"، قال: "أتحفظه؟"، قال: "أخشيت فراره فأحفظه؟".

إنّ السخرية تتضمن كلّ آثار التلفظ المزدوج (ت 1 وت 0)، وبمعنى آخر، فإن (ت 1) تحقق جملة ليست في حقيقة الأمر إلّا حكماً حول (ت 0)، ويمكن أنّ نميّز ضمن أفعال من هذا النوع حالات متعدّدة أهمها، التنويهاً الصريحة. ⁽¹⁵⁾ mentions explicites يظهر في مثل هذا النوع أنّ مسؤولية إنتاج التلفظ منعومة بالنسبة للناقل، فهو غير مكلف بتحمل مسؤولية المحتويات الخاصّة بـ (ت 0)، ثم من الناحية التركيبية يمكن عزل مكونين على الأقل في الملفوظ الدال: من جانب نجد "الاسم" الذي يحيل إلى ت 0، ومن جانب آخر نجد ما قيل (أو المدلول) عن ت 0، بمعنى مسند مقدّم لهذا الاسم.

إضافة إلى هذا كلّه، يمكن إثارة مشكلة المرجعية المبهمة لهذا النوع من التنويه، لأنّ الملفوظ يمثل شبكتين من الاستعلام الاتهامي المحكم السبك، تتموقع الشبكة الأولى في حدود الاسم المتعلق بالتلفظ ت0، في حين تتموقع الشبكة الثانية خارج هذه الحدود وتحيل إلى ت1، وبالتالي يتبين أنّ التنويه التلفظي غامض من حيث المرجع، إذ أنّ المبهم الموجود في الملفوظ المنقول يأخذ دائما قيمته إزاء التلفظ (ت0)، والسؤال المطروح: في حالة عدم وجود (ت0) هل يمكن الحديث عن السخرية؟ وماهي النتائج المنتظرة، أي قول الحقيقة التي نريد إيصالها ولكن في شكل ساخر أو تهكمي؟

قوانين السخرية:

بعد التعرّض لكيفية حدوث السخرية "من حيث هي فعل تواصل يحتكم إلى آليات محكمة، يبقى الحديث عن عمل السخرية وأهدافها. إنّ الغاية من توظيف السخرية فيها إجماع، بحيث اتفق على أنّ تكون لقول السوء عن الآخر، فهي إمّا استهزاء أو تهكم، وبالتالي يمكن الإحالة إلى سوء النية أو الخبث، وعند استغلال الوجه المجازي للسخرية يمكن اعتبارها سلاحا للدفاع عن الآراء ووجهات النظر دون التكفل بمسؤولية ذلك، لأن الشخص الساخر هو الذي يقول كلّ شيء من وراء حجاب، أي إمكانية إنكار القصد الذي يرمي إليه. إنّ الفعل الساخر يؤخذ بالاستناد إلى مفهوم قول السوء، إلّا أنّه يمكن ملاحظة حالتين متميزتين: فالجملة الإيجابية في قولنا: "إنّه ذكي"، أي تدلّ على حكم قيمي في صالح الموضوع الموصوف، تتعرض هذه الجملة إلى استعمالات ضدية متعدّدة.

وذلك مقارنة بالجملة السلبية من قبيل "إنّه خسيس"، فالجملة الأولى تسمح بفهم ما تسمح به الجملة العكسية (الثانية)، بينما لا يمكن تأويل الجملة الثانية إلّا بما تحمله من معنى، وبالتالي يمكن الحديث عن علاقة الاحتواء أي أنّ الجملة

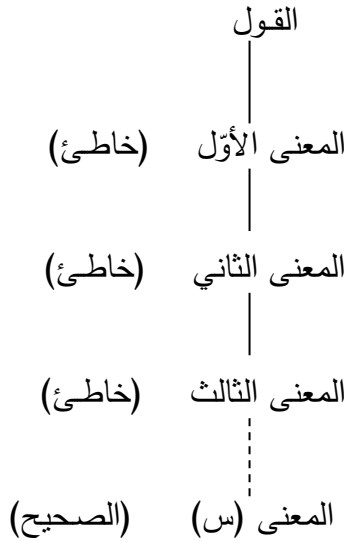
الثانية محتواة في الأولى من حيث المعنى والفعل الساخر، ولا تساوي المعنى المرادف للجملة الأولى.

إنّ مثل هذا الخلل التناظري Dissymétrie بين الجملة الإيجابية والجملة السلبية يفسّر بما يدّعى بالوظيفة السجالية (16) للسخرية، فإذا كانت السخرية في هذا المثال تهدف إلى قول السوء، فإننا نتصور أنّ التضاد يمكن أن يطبق على الجملة الأولى، وليس على الجملة الثانية، ثم أنّ السخرية في الجملة الأولى تؤدي بالتضاد الذي تنثّره إلى حكم غير أيجابي، بينما في الجملة الثانية فإن التضاد الذي يمكن إحداثه سيؤدي لا محالة إلى المعنى القريب من الأصلي، إلا أن مثل هذا التحليل غير كاف، إذ في بعض الأحيان نجد جملا من قبيل: "إنّك خسيس" وهي جملة سلبية ولكن لا تفسر التفسير السابق، لأنها وردت في سياق محدد يسمح بفهم المعنى المقصود مباشرة على أنه سخرية، وهذا إلى جانب ما يدعى بتأكيد المدح بما يشبه الذم في السخرية التي من خلالها نقدّم مدحا في صيغة معاتبات.

من هذا المنظور، كثيرا ما نجعل من الفعل الساخر مجازا، إذ يتم بتحديد التحويل الدلالي من المعنى الأصلي إلى المعنى التصوري الذي يكون معنى معاكسا، وممثلا للمعنى الحقيقي المفلوظ، وهو المعنى الذي يرغب المتلفظ إفهامه أو إيصاله للمتلقّي، وفي الآن ذاته هو المعنى الذي يجب أن يتعرّف عليه هذا الأخير، إذن يمكن القول أنّ الغاية من السخرية هي إبراز المعنى التصوري.

ولكن هل يكمن الهدف الحقيقي للسخرية في المعنى التصوري؟، فإذا كانت الغاية تكمن في إبراز المعنى التصوري عكس المعنى الحقيقي، فإنّ المتلفظ بالجملة الأولى "إنّه ذكي" يحسّ بالحاجة إلى هذه اللفّة الاستعارية Détour topologique للتعبير عن رأيه الحقيقي، والسؤال المطروح: لماذا نحث بحاجة إلى ذلك؟ ولو أخذنا بهذه النظرة فإننا سوف نحصر الجمل في معناها الحقيقي ولا تتجاوزها، وهو ما

يصبح غير معقول، إذ أنّ الأقوال حاملة لمعان متعددة، الأمر الذي تؤكدّه النظرية السياقية⁽¹⁷⁾، فيمكن الحديث عن تراتبية المعاني أو تسلسلها التي توصلنا إلى المعنى الحقيقي بتجاوز كل المعاني الخاطئة.



والحديث عن معنيين متعاكسين يؤدي إلى مسألة الاختيار بينهما، ولكنّهما يعملان في تكامل، إذ كل معنى يترك مجالا للآخر حيث يمكن الانتقال بينهما، وربما أكثر من ذلك إذ يمكن الوصول إلى معنى عن طريق معنى آخر بواسطة الاستنتاج، وتقبل صحة معنى أول يعني تقبل صحة معنى ثان... وهكذا. وفي هذه الحال، يتبين أنّ السخرية شكل من أشكال التناقض التلفظي *Forme de paradoxe énonciatif*، والنظرية الدلالية التي تفرض تراتب المعاني لن نتّمكن من الوصول إلى تحديد طبيعتها. وإلى جانب كون السخرية مجازاً، أو لها وظيفة سجالية أساسية، فإن لها أيضاً وظيفة أساسية وهي الدفاعية، فبعيدا عن غرض الاعتداء، فهي تستخدم أيضاً للتحذير من بعض الصيغ التهجمية، هجومات من

طبيعة سميائية تظهر من خلال بعض المعايير التواصلية، وبعض الفرضيات التي تؤدي إلى الانخراط في التركيبية اللسانية الاجتماعية.

ومن خلال ما سبق ذكره، يتبين أنّ توظيف السخرية باعتبارها تناقضا حاجيا يسمح للمخاطب بالمحاجة دون تحمل النتائج، بمعنى دون خطر الانغلاق التكراري، ولا خطر العقوبة التي تنجر عن عدم الانسجام، فأنّ نسخر من أحد يعني أنّ نضع خطابنا في مقام الحجّة، ولكننا نحاجج في نطاق مستويين: التلّفظ والملفوظ، حيث يتضمن أحدهما الآخر، إنّ الملفوظ الساخر في نظر برونودور يفترض بمحتواه وبصفة مسبقة وجود معيار حيث ينبغي الاختيار بين تكرار وآخر، فالسخرية وسيلة للهروب من قانون الانسجام، فهي غير منفصلة عن القيمة الحاجية التي تجعل المتكلم حرّا في مواصلة الحديث والاستجداء بمختلف المعاني التي يمكن أن تتصل بها، ثمّ إنّ المتكلم لا يتعرض للعقاب، إذ لا يمكن الحكم عليه بعدم المواضعة، فيمكنه الاحتماء بأية قيمة حاجية بهدف تأكيد ملائمة التلّفظ للسياق.

إنّ السخرية شكل من أشكال التواصل، تسمح بإيصال ما يريده الإنسان في صيغة المزاح الذي يقدم له شرعية قول ما يقول، وإذا حكم عليه بالإيذاء فإنه يحتمي بغير المقول، وهو ما تبلوره النظرية التداولية الحديثة في القول المضمر، الذي يفترض تعارف كل من المخاطب والمخاطب على الأقوال وذلك بالعودة إلى معارفهم السابقة وبعض الخلفيات المشتركة.

(1) M.Bakhtine, principes dialogiques, par T.Todorov, édition le seuil, Paris 1981.

(2) - رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للسرد، ت بحراوي، عفار، القمري، مجلة آفاق، العدد 8-9، ص21.

* اللا-شخص هو الشخص الذي ليس له دور أو الشخص الثالث، إلا أنّ عند سرفوني "يعد أساسيا، ولكنه لا يحمل علامة.

(3) J. Cervoni, l'énonciation, presse universitaire de France, Paris 1987, p30.

(4) O. Ducrot, le dire et le dit, édition de minuit, Paris 1984, P200.

(5) Mainguenu, éléments de linguistique pour le texte littéraire, Dunod, Paris 1993-P06.

* اهتمت البلاغة القديمة بالصفات المقدمة للخطيب، وكذلك الصورة أو الصور التي يجب أن يظهر عليها، بينما تجاهلت الطرف الآخر الذي هو الملثقي، ولم تقدم له أية صورة وكأنه طرف غائب أو مجهول.

(6) إمبراطور، إيكو، القارئ النموذجي، ترجمة أحمد بوحسن، مجلة آفاق، ص140.

(7) D. Mainguenu, éléments de linguistique pour le texte littéraire, p83.

(8) O. ducrot, le dire et le dit, P 211.

(9) Ibid, P211.

(10) A.Berrendonner, éléments de pragmatique linguistique, éditions de minuit, Paris 1981, P176.

* في هذا المقام، بدل تقديم حجة لتعيين معنى معين، فإنه يتم تقديم حجة لتقديم معنى معاكس.

- - يمكن أن ننقل عبارات شخص بطريقتين مختلفتين، سواء بنقلها دون إحداث أي تغيير عليها، وفي هذه الحال يجب وضعها بين مزدوجتين أو شلتين، وهذا ما يدعى بالخطاب المباشر، أو بنقلها وإحداث تغيير في الصيغة النحوية وهذا ما سيؤدي حتما إلى تغيير في بنيتها، وهو ما يدعى بالخطاب غير المباشر. يمكن العودة إلى كتاب باتريك شارودو

Grammaire du sens et expression, 1992.

11- L. Rosier, Le discours rapporté, histoire, théories, pratiques, De boeck Duclot, Paris 1999, p 11.

♦ -علمنا من الفعل الانجازي أن نقوم بعمل بعد أن نفهم فحوى القول، ومن الأمثلة التي يمكن الاستعانة بها في هذا الصدد نجد: "الجو حار هنا"، والمقصود الحقيقي بهذا القول يفضي إلى أن يقوم المخاطب بفتح النافذة أو الباب، فقد تم الانتقال من معنى إلى معنى آخر مختلف عن طريق الاستنتاج وبعض المعايير الأخرى الهامة.

◊ - القول المضمر بمفهوم أوركينيوني هو القول الذي يحتمل معنى آخر إلى جانب المعنى الجانبي، يمكن التعرف على هذا المعنى بمعرفة بعض المعطيات السياقية أو الخلفيات المسبقة. يمكن للأقوال المضمرة إلى جانب علامات الملفوظ الاستعانة بقوانين الخطاب التي سوف تخص التلطف بقيمة حجاجية متفرغة مثل المجاز.

12 -D. Maingenau. Op.Cit, P 88.

13 -D. Sperber, D Wilson, « les ironies comme mention», poétique n° 36, Paris 1978, P 399-412.

14- الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، ط1، بيروت 2000، ص 246.

(15) A. Berrendonner, Op. cit, P237.

(16) A. Berrendonner, Op. cit, P224.

(17) A. Berrendonner, Op. cit, P237.